والدليل العقلي على علمه تعالى: أنه يستحيل إيجاده الأشياء مع الجهل، ولأن إيجاده الأشياء بإرادته، والإرادة تستلزم تصور المراد، وتصور المراد هو العلم بالمراد، فكان الإيجاد مستلزمًا للإرادة، مستلزمة للعلم، فالإيجاد مستلزم للعمل، ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علم الفاعل لها، لأن الفعل المحكم المتقن يمتنع صدوره عن غير علم، ولأن من المخلوقات ما هو عالم، والعلم صفة كمال، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالمًا.

وهذا له طريقان:

أحدهما: أن يقال: نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكمل من المخلوق، وأن الواجب أكمل من الممكن، ونعلم ضرورة أن لو فرضنا شيئين، أحدهما عالم، والآخر غير عالم: كان العالم أكمل، فلو لم يكن الخالق عالمًا لزم أن يكون الممكن أكمل منه، وهو ممتنع.

الثاني: أن يقال: كل علم في الممكنات، التي هي المخلوقات، فهو منه، ومن الممتنع أن يكون فاعل الكمال ومبدعه عاريًا منه، بل هو أحق به، والله تعالى له المثل الأعلى، ولا يستوي هو والمخلوق، لا في قياس تمثيلي، ولا في قياس شمولي، بل كل ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق، وكل نقص تنزه عنه مخلوق ما فتنزه الخالق عنه أولى.

تقدير الأقدار والآجال، ورد على المعتزلة

قال الطحاوي: (وقدر لهم أقدارًا)

فقد قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر].

قال الطحاوي: (وضرب لهم آجالاً)

يعني أن الله سبحانه وتعالى قدر آجال الخلائق، بحيث إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران].

وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة زوج النبي ﷺ: «اللهم أمتعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية»، فقال النبي ﷺ: «قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئًا قبل أجله، ولن يؤخر شيئًا عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، وعذاب في القبر: كان خيرًا وأفضل».

فالمقتول ميت بأجله، فعلم الله تعالى وقدر أن هذا يموت بسبب المرض، وهذا بسبب القتل، وهذا بسبب الهدم، إلى غير ذلك من الأسباب، والله سبحانه خلق الموت والحياة، وخلق سبب الموت والحياة.

وعند المعتزلة: المقتول مقطوع عليه أجله، ولو لم يقتل لعاش إلى أجله، فكان له أجلان!! وهذا باطل؛ لأنه لا يليق أن ينسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلًا يعلم أنه لا يعيش إليه البتة، أو يجعل أجله أحد الأمرين، كفعل الجاهل بالعواقب، وأوجب القصاص والضمان على القاتل لارتكابه المنهي عنه ومباشرته السبب المحظور، وعلى هذا يخرج قوله ﷺ: «صلة الرحم تزيد في العمر» أي: سبب طول العمر، وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيش بهذا السبب إلى هذه الغاية، ولولا ذلك السبب لم يصل إلى هذه الغاية، ولكن قدر هذا السبب وقضاه، وكذلك قدر أن هذا يقطع رحمه فيعيش إلى كذا، كما قلنا في القتل وعدمه.

فإن قيل: هل يلزم من تأثير صلة الرحم في زيادة العمر ونقصانه تأثير الدعاء في ذلك أم لا؟

فالجواب: أن ذلك غير لازم؛ لقوله ﷺ لأم حبيبة: قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة، كما تقدم، فعلم أن الأعمال مقدرة، لم يشرع الدعاء بتغييرها، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة، فإن الدعاء مشروع له نافع فيه ألا ترى أن الدعاء بتغيير

العمر لما تضمن النفع الأخروي شرع في الدعاء الذي رواه النسائي من حديث عمار ابن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق: أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي».

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم في مستدركه من حديث ثوبان عن النبي ﷺ: «لا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه» وفي الحديث رد على من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ: «أنه نهى عن النذر»، وقال: «أنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل».

واعلم أن الدعاء يكون نافعًا مشروعًا في بعض الأشياء دون بعض، وكذلك هو، ولهذا لا يحب الله المعتدين في الدعاء، وكان الإمام أحمد يكره أن يدعى له بطول العمر ويقول: هذا أمر قد فرغ منه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ﴿١١﴾﴾[فاطر].

فقد قيل في الضمير المذكور في قوله تعالى: (من عمره) إنه بمنزلة قولهم: عندي درهم ونصفه، أي: ونصف درهم آخر، فيكون المعنى: ولا ينقص من عمر معمر آخر. وقيل الزيادة والنقصان في الصحف التي في أيدي الملائكة.

وقال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾[الرعد].

وقد حمل ذلك على أنه المحو والإثبات من الصحف التي في أيدي الملائكة، وأن قوله: وعنده أم الكتاب: اللوح المحفوظ.

علم الله المحيط

قال الطحاوي: (ولم يخف عليه شيء قبل أن يخلقهم، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم)

فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾[الأنعام].

وإن كان يعلم أنهم لا يُردُّون، ولكن أخبر أنهم لو ردوا لعادوا، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾[الأنفال].

غاية الخلق: العبادة

قال الطحاوي: (وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته)

فذكر الشيخ الأمر والنهي، بعد ذكر الخلق والقدر، إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات].

ما شاء الله للعباد كان وما لم يشأ لم يكن

قال الطحاوي: (وكل شيء يجري بتقدير، ومشيئته، ومشيئته، تنفذ لا مشيئة للعباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء لهم كان، وما لم يشأ لم يكن)

وذلك من قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾[الإنسان:٣٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[الذاريات].

إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وكيف يكون في ملكه ما لا يشاء! ومن أضل سبيلًا وأكفر ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر، والكافر شاء الكفر، فغلبت مشيئة الكافر مشيئة الله! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

فإن قيل: يشكل على هذا قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا ﴿١٤٨﴾﴾[الأنعام].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل].

قيل: قد أجيب عن هذا بأجوبة، من أحسنها: أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته، وقالوا: لو كره ذلك وسخطه لما شاءه، فجعلوا مشيئته دليل رضاه، فرد عليهم ذلك، أو أنه أنكر عليهم اعتقادهم أن مشيئة الله دليل على أمره به، أو أنه أنكر عليهم معارضتهم شرعه وأمره الذي أرسل به رسله وأنزل به بقضائه وقدره، فجعلوا المشيئة العامة دافعة للأمر، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره، دافعين بها لشرعه، كفعل الزنادقة والجهال: إذا أمروا أو نهوا: احتجوا بالقدر، وقد احتج سارق على عمر رضي الله عنه بالقدر، فقال: وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدره.

مسألة الهدى والضلال والرد على المعتزلة

قال الطحاوي: (يهدي من يشاء، ويعصم ويعافي: فضلاً، ويضل من يشاء ويخذل ويبتلي: عدلاً)

وهذا رد على المعتزلة حين يقولون بوجوب فعل الأصلح للعبد على الله، وهي مسألة الهدى والضلال.

قالت المعتزلة: الهدى من الله: بيان طريق الصواب، والإضلال: تسمية العبد ضالا، وحكمه تعالى على العبد بالضلال عند خلق العبد الضلال في نفسه.

وهذا مبني على أصلهم الفاسد: أن أفعال العباد مخلوقة لهم، والدليل على ما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴿٥٦﴾﴾[القصص].

ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفي عن نبيه؛ لأنه ﷺ بين الطريق لمن أحب وأبغض، ولو كان الهدى من الله البيان – وهو عام في كل نفس – لما صح التقييد بالمشيئة.

المشيئة بين الفضل والعدل

قوله: (وكلهم يتقلبون في مشيئته، بين فضله وعدله)

فإنهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ۚ ﴿٢﴾﴾[التغابن].

فمن هداه إلى الإيمان فبفضله، وله الحمد، ومن أضله فبعدله، وله الحمد، وسيأتي لهذا المعنى زيادة إيضاح، إن شاء الله تعالى، فإن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام في القدر في مكان واحد، بل فرقه، فأتيت به على ترتيبه.

تعاليه سبحانه عن المثل

قوله: (وهو متعال عن الأضداد والأنداد)

الضد: المخالف، والند: المثل، وهو سبحانه لا معارض له، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا مثل له، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾

[الإخلاص].

الإيمان واليقين بالقضاء والحكم والقدرة

قال الطحاوي: (لا رادّ لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا غالب لأمره)

أي: لا يرد قضاء الله راد، ولا يعقب، أي: لا يؤخر حكمه مؤخر، ولا يغلب أمره غالب، بل هو الله الواحد القهار.

قال: (آمنّا بذلك كله، وأيقنّا أن كلاًّ من عنده)

الإيمان واليقين باصطفاء محمد عبد الله ورسوله ﷺ

ثم قال الطحاوي: (وإن محمدًا عبده المصطفى، ونبيه المجتبى، ورسوله المرتضى)

الاصطفاء والاجتباء والارتضاء: متقارب المعنى، واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى.

زيادة العبودية تحقق زيادة الكمال

وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه، وأن الخروج عنها أكمل، فهو من أجهل الخلق وأضلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦﴾[الأنبياء].

ذكر الله نبيه ﷺ باسم «العبد» في أشرف المقامات، فقال في ذكر الإسراء: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ ١﴾[الإسراء].

وقوله: (وإن محمدًا) بكسر الهمزة عطفًا على قوله: (إن الله واحد لا شريك له) لأن الكل معمول القول، أعني قوله: (نقول في توحيد الله).

والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر: تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات.

تقرير النبوة بالمعجزات وقرائن الحال وآثار الكرامة

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا إلا على أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالها تعرب عنهما، وتعرّف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ وما أحسن ما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكاذبين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز، فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولابد أن يفعل أمورًا يبين فيها صدقه والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يتبين به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق ضده، بل كل شخصين ادّعيا أمرًا: أحدهما صادق والآخر كاذب، لابد أن يظهر صدق هذا وكذب هذا ولو بعد مدة؛ إذ الصدق مستلزم للبر، والكذب مستلزم للفجور، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: (عليكم بالصدق؛ فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا).

فإذا كان صدق المخبر وكذبه يعلم بما يقترن من القرائن، فكيف بدعوى المدعي أنه رسول الله؟ كيف يخفَى صدق هذا من كذبه؟ وكيف لا يتميز الصادق في ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة؟

ولهذا لما كانت خديجة رضي الله عنها تعلم من النبي ﷺ أنه الصادق البار، قال لها لما جاءه الوحي: «إني قد خشيت على نفسي» فقالت: (كلا والله لا يخزيك الله، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق).

وكذلك قال النجاشي لما استخبرهم عما يخبر به واسقرأهم القرآن فقرأوا عليه: «إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة».

وكذلك ورقة بن نوفل، لما أخبره النبي ﷺ بما رآه وكان ورقة قد تنصر، وكان

يكتب الإنجيل بالعربية وقالت له خديجة رضي الله عنها: «أي عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره ﷺ بما رأى قال: (هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى).

وأيضا: فإن الله سبحانه أبقى في العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة، كثبوت الطوفان، وإغراق فرعون وجنوده، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيًّا بعد نبي، وفي سورة الشعراء، كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده، يقول في آخر كل قصة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ [الشعراء].

ونحن اليوم علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علمًا يقينًا أنهم كانوا صادقين من وجوه متعددة:

منها: أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم.

ومنها: ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم، إذا عُرف الوجه الذي حصل عليه - كغرق فرعون وغرق قوم نوح - عرف صدق الرسل.

ومنها: أن من عرف صدق ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها، تبين له أنهم أعلم الخلق، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل.

إنكار رسالته ﷺ طعن في الرب تعالى

بل إنكار رسالته ﷺ طعن في الرب تبارك وتعالى، ونسبة له إلى الظلم، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، بل جحد للرب بالكلية وإنكار.

وبيان ذلك: أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبي صادق، بل ملك ظالم، فقد تهيأ له أن يفتري على الله، ويتقول عليه، ويستمر حتى يحلل ويحرم، ويفرض

الفرائض، ويشرع الشرائع، وينسخ الملل، ويضرب الرقاب، ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق، ويتم ذلك حتى تفتح له الأرض، وينسب ذلك كله إلى أمر الله له به، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق، وهو مستمر بالافتراء عليه ثلاثًا وعشرين سنة، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره، ويعلي أمره ويمكن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر، وأبلغ من ذلك أنه يجيب دعوته، ويهلك أعداءه ويرفع له ذكره، هذا وهو عندهم في غاية الافتراء والظلم، والله تعالى يقره على ذلك، فيلزمهم أن يقولوا: لا صانع للعالم ولا مدبر، ولو كان له مدبر قدير لأخذ على يديه وجعله نكالًا للعالمين؛ إذ لا يليق بالملوك غير ذلك فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين.

ونحن لا ننكر أن كثيرًا من الكذابين قائم في الوجود، وظهرت له شوكة ولكن لم يتم أمره، ولم تطُل مدته، بل يسلط الله عليه رسله وأتباعه.

هذه سنة الله قد خلت من قبل، حتى إن الكفار يعلمون ذلك، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الطور].

صفات وأسماء للنبي ﷺ

قال الطحاوي: (وإنه خاتم الأنبياء)

وذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب].

وقال النبي ﷺ: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**» رواه البخاري.

وقال ﷺ : **(لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)**. رواه البخاري. والعاقب: الذي ليس بعده نبي.

قال: (وإمام الأتقياء)

والإمام: الذي يؤتمُّ به، أي يقتدون به، والنبي ﷺ إنما بعث للاقتداء به لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴿٣١﴾ ﴾[آل عمران] .

وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء.

قال: (وسيد المرسلين)

فقد قال النبي ﷺ : **«أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»** رواه مسلم.

فإن قيل: يشكل على هذا قوله ﷺ : (لا تفضلوني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشًا بساق العرش، فلا أدري: هل أفاق قبلي؟ أو كان ممن استثنى الله؟).

خرّجاه في الصحيحين. فكيف يجمع بين هذا وبين قوله: «أنا سيد ولد آدم»؟

فالجواب: أن هذا كان له سبب، فإنه كان قد قال يهودي: لا والذي اصطفى موسى على البشر فلطمه مسلم وقال: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودي فاشتكى الذي لطمه فقال النبي ﷺ : لأن التفضيل إذا كان وجه الحمية والعصبية وهوى النفس، كان مذمومًا، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذمومًا فإن الله حرم الفخر وقد قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ ﴿٢٥٣﴾ ﴾[البقرة] .

فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على وجه الانتقاص بالمفضول.

وأما ما يُروى أن النبي ﷺ قال: (لا تفضلوني على يونس بن متى) فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب المعتمدة، وإنما اللفظ الذي في الصحيح: (لا ينبغي لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى. وفي رواية: من قال: إني خير من يونس بن متى فقد كذب) وهذا اللفظ يدل على العموم، لا ينبغي لأحد أن يفضل نفسه على يونس، ليس فيه نهي المسلمين أن يفضلوا محمدًا على يونس.

وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوت وهو مليم، أي فاعل ما يلام عليه، ثم ذكر الله خبره من بعد فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾[الأنبياء].

فقد يقع في نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس، فلا يحتاج إلى هذا المقام، مقام الاستغفار، والاعتراف والتسبيح، فمن ظن هذا فقد كذب، بل كل عبد من عباد الله يقول ما قال يونس: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] كما قال أول الأنبياء وآخرهم، فأولهم آدم قال: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف].

وآخرهم وأفضلهم وسيدهم: محمد ﷺ قال في الحديث الصحيح: (اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي، واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا، لا يغفر الذنوب إلا أنت).

وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه قال: (أوحي إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد).

فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين، فكيف على نبي كريم؟

وإنما أخبر ﷺ أنه سيد ولد آدم لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره؛ إذ لا نبي بعده يخبرنا بعظيم قدره عند الله، كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله، صلى الله عليهم أجمعين، ولهذا أتبعه بقوله: «لا فخر» كما جاء في رواية.

وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر: أن مقام الذي أسري به إلى ربه، وهو مقرب مكرم، كمقام الذي ألقي في بطن الحوت وهو مليم؟

ثم قال الطحاوي: (وحبيب رب العالمين)

فقد ثبت له ﷺ أعلى مراتب المحبة، وهي الخلة كما صح عنه ﷺ أنه قال: (إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا)، وقال: (ولو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الرحمن).

والحديثان في الصحيح، وهما يبطلان قول من قال: الخلة لإبراهيم والمحبة لمحمد، فقد ثبتت المحبة لغيره من المؤمنين، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

وأما حديث: «إن إبراهيم خليل الله، ألا وأنا حبيب الله ولا فخر» الذي رواه الترمذي فإنه لم يثبت؛ لضعف رواية زمعة بن صالح.

كذب كل مدع للنبوة بعده ﷺ

قال: (وكل دعوى النبوة بعده فغيٌّ وهوى)

وذلك لأنه خاتم النبيين، فعلم أن من ادعى النبوة بعده فهو كاذب.

ولا يقال: فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه؟ **لأنا نقول:** هذا لا يتصور أن يوجد، وهو من باب فرض المحال؛ لأن